الفصل الأول

الجذور المشتركة

ساد الاعتقاد فى تعدد الآلهة العديد من الحضارات القديمة. فمن أطلال ومعابد حضارة ما بين النهرين [دجلة والفرات] والحضارة المصرية القديمتين فى الشرق الأوسط إلى الحضارتين الإغريقية والرومانية فى أوروبا إلى الهند والصين فى الشرق الأقصى، كان الناس فى غالبية الحضارات الأولى يعبدون هيكلاً لجميع الآلهة، حيث اختص كل إله بحكم جزء من الكون، بينما كانت جميع الآلهة تخضع لإله واحد أعظم. مَثَّل الأولون آلهتهم فى شكل أصنام، وعبدوا تجسيدها المادى.

من ينحت تمثال بوذا لا يعبده مطلقًا

تلك المجتمعات كانت تخلع على الفرعون أو الإمبراطور أو القيصر أو الملك صفات الألوهية، ابن الإله، وكانت طبقة رجال الدين (مثل البراهما فى الهند) تحظى بقدر واسع من الامتيازات لقاء ما يقدمونه لصاحب السلطة من دعم له بوصفه كائنًا مقدسًا؛ وكان المجتمع الدنيوى يعكس هيكل البلاط المقدس، حيث كان الفرعون أو الملك وحاشيته يمسكون بمقاليد الحكم فى المجتمع تمامًا كما كان للإله الأعظم حاشية وأبناء، كانوا آلهة بدورهم يحكمون الآلهة الأصغر منهم. وكان الملك باعتباره ابن الإله هو ممثل الرب على الأرض.

ومع هذه المعتقدات الخاصة بعلاقة الإنسان بالإله، جاء اعتقاد آخر يتصل بهيكل المجتمع البشرى. كان الناس يولدون لطبقات أو فئات اجتماعية تعكس هيكل البلاط

المقدس، بما يبين أن «الحياة على الأرض هى كما الحياة فى السماء». فكان المجتمع يضم طبقة الملوك وطبقة النبلاء وطبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين والتجار والمزارعين، وطبقة تضم عامة الذين يقومون بالأعمال الوضيعة وغير المرغوبة. ولم يكن الحراك الاجتماعى هو العرف السائد، فكان المرء يولد ويعمل ويتزوج ويموت فى إطار طبقته؛ وكان وضعه فى الحياة ومهنته واختيار زوجه أموراً تقررها الأسرة والطبقة التى ولد المرء فيها، وكان مصير المرء يعتبر فى بعض المجتمعات قدراً محتوماً.

وفى كثير من تلك المجتمعات لم يكن رفض دين الدولة مجرد مسألة تتعلق بمحاربة حرية الضمير الإنسانى (الأمر الذى نعده نحن اليوم فى أمريكا من المسلمات)، بل كان يعد شكلاً من أشكال الخيانة للدولة، ويستلزم عقوبة القتل، ناهيك عن اعتباره انتهاكًا لهيكل المؤسسة الاجتماعية الذى يقوم عليه المجتمع، وحرفيّا لم يكن للمرء مكان فى المجتمع؛ لأن مثل هذا الشخص كان كنملة ترفض الهيكل البنيوى لمستعمرة النمل ولا يتمتع بالحماية من أىّ من مؤسساته. وكان الشكل الوحيد من أشكال الحرية الذى يمكن للفرد أن يمارس من خلاله هذه القناعات الداخلية ويكون صادقًا مع نفسه هو أن يعزل نفسه عن المجتمع ويعيش كناسك فى كهف. وكان العرب فى الجاهلية يسمون أمثال هؤلاء بالحنفاء الذين اعتزلوا بدافع ضميرهم ورغبتهم أن يعيشوا حسب هذه المعايير.

وهذه القيود الاجتماعية القوية قد تبدو غريبة بالنسبة للقارئ الأمريكى المعاصر؛ ولكن منذ خمسين سنة فقط لم يكن فى أمريكا يساوى شيئًا ما لم يكن بروتستانتيّا أو كاثوليكيّا أو يهوديّا، ومن أجل أن يصبح المرء «شيئًا»، أو يكون له اسم، كان على المرء أن يحدد نفسه لنفسه وأن يحدده الآخرون كأحد المنتمين إلى أىّ من الطوائف الدينية الثلاث الكبرى التى كان يتألف منها المجتمع الأمريكى[1].

إنه لمن الصعب جدّا على الناس أن يستقلوا عن المجتمع وأن ينأوا بأنفسهم عن أعرافه وأنماط الفكر المترسخة فيه. ولو كان ذلك صعبًا فى أمريكا، هذا البلد الذى نجلّ فيه الحرية الفردية، فلك أن تتخيل كم كان صعبًا منذ بضع آلاف من السنين فى ظل أولى الحضارات القديمة التى كانت معروفة فى منطقة الشرق الأوسط التى تمتد بين مصر وفارس.

وفى تلك المنطقة، وفى ذلك المجتمع الذى يتسم بمناخ سياسى واجتماعى ودينى تتعدد فيه الآلهة، ولد فى إحدى مدن ما بين النهرين، التى تسمى العراق حاليًا، رجل حنيف يدعى إبراهيم. وأسس فكرة عدم القبول بالشرك. وكما تخبرنا الروايات من التراث الإسلامى وتراث أهل الكتاب فقد كان والد إبراهيم نحاتًا يصنع الأوثان. ولنا أن نتخيل حال الغلام إبراهيم وهو يراقب أباه وهو يصنع تلك التماثيل من المواد الخام من خشب أو حجارة، وربما يصيح باللعن عندما تتشقق المادة التى يصنع منها تماثيله. وأظن أن الحقيقة التى يعكسها المثل الصينى القائل: «من ينحت تمثال بوذا لا يعبده مطلقًا» كانت دائمًا نصب أعين الصبى إبراهيم الذى ربما لاحظ بالطريقة التى يلحظ بها الأطفال سخافات آبائهم، المخلوق وهو يقوم بخلق الخالق.

ويصور القرآن الكريم إبراهيم وهو يحاجج قومه:

﴿ **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

عاد إبراهيم من رحلة بحث روحانية، وبعد أن رفض أن يتخذ الشمس أو القمر أو النجوم آلهة (وهى أشياء عبدها قومه)، أدرك أنه لا بد لهذا الكون من خالق واحد ـ إله واحد (ويصور لنا القرآن بحث إبراهيم عن الإله فى الآيات ٧٥ـ٩١ من سورة الأنعام). وإبراهيم اليوم عند المسلمين واليهود والنصارى هو أب الجنس البشرى المؤسس لمجتمع التوحيد الدائم الذى يؤمن أن هناك إلهًا واحدًا هو خالق الكون وحافظه.

فالتوحيد الذى علمه إبراهيم ودعا إليه لم يكن تغييرًا جذريًا على مستوى العقيدة وحسب، حيث انتقص من شأن تعدد الآلهة وقال ببطلانها، بل كان أيضًا تغييرًا جذريًا على المستوى الاجتماعى. حيث إن فكرة وحدانية الله كانت تحمل فى طياتها أمرين هامين يتعلقان بالإنسانية.

أولاً: انطوت فكرة التوحيد على مبدأ المساواة بين البشر؛ وذلك ـ ببساطة ـ لأننا ولدنا لأب واحد وأم واحدة؛ حيث يقول الله ـ تعالى ـ فى القرآن الكريم:

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا يعنى أن الناس أمام الله سواء، عائلة واحدة إخوة وأخوات، لا فرق بينهم إلا بالعمل الصالح، وليس بشرف النسب والميلاد. وتفضيل إنسان على آخر على أساس من عوارض الميلاد مثل لون الجلد أو الطبقة الاجتماعية أو الانتماءات القبلية أو العائلية أو الجنس أمر لا عدل فيه؛ ولهذا ليس له مكان فى النظرة الإنسانية للعالم. وبالرغم من أن إبداء مثل هذا التفضيل على أساس من هذه البنود يعد انتهاكًا صارخًا للعقل والقواعد الأخلاقية، نجد الناس يجدون فيها الوسيلة التقليدية للحكم على الآخرين وبناء هيكل مجتمعاتهم.

ثانيًا: فلأننا سواء؛ ولأن الخالق أسبغ علينا حرية الإرادة، فإننا نمتلك حريات معينة لا يمكن التنازل عنها؛ ومن أهم الحريات التى منحنا إياها هى حرية القبول والرد فيما يتعلق بشأن الله خالقنا. وكل اختيار بعد هذا يأتى فى مرتبة تالية بعيدة، بما فى ذلك حرية الاختيار بين حشد من أعمال الخير أو الشر، إلى حرية اختيار الزوج أو المهنة، بدلاً من أن يحدد المولد ذلك؛ ولأننا أحرار فى التفكير لأنفسنا، فإن قمع الفكر يعد انتهاكًا صارخًا لحرية الإرادة؛ وحتى اليوم نجد أن الناس فى أنحاء كثيرة من العالم ما زالوا يكرهون اجتماعيًا على اختيار معتقدات دينية معينة أو الوظائف أو الأزواج أو طريقة التفكير؛ وما ولعنا بالأفلام التى تصور قصة حب للأمير الذى يريد الزواج بابنة فلاح فقير إلا شاهد بين على مدى تغلغل الالتزام بحرية الإرادة فينا ـ و نراه فى تعاطفنا مع الذين تحرمهم الأعراف الاجتماعية من الزواج من غير «طبقتهم».

يؤكد القرآن على تلك الحرية قائلاً: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ بل إن القرآن فى بعض آياته يشدد على أن الله ـ سبحانه ـ قد خلقنا ومنحنا الحرية فى الإيمان به أو إنكاره، وذلك فى مثل قول الله ـ تعالى ـ ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٩]

ومثل قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)**﴾ [المائدة: ٤٨]

إن حرية الإرادة الإنسانية، وحرية الاختيار الفردى، وحرية الخطأ، مسألة جوهرية بالنسبة إلى الكرامة البشرية. ولولا أننا نتمتع بحرية الإرادة تلك ما كنا لنسأل عن أعمالنا واختياراتنا؛ وعند توافر حرية الإرادة فقط يمكننا أن ننمو وننضج ونتعلم كيف نصبح خلفاء مسئولين. فكيف يمكن أن نحاسب بدون أن نتمتع بحرية الاختيار[٢]؟

ولكن نظرًا لأن بعض الأفراد يقومون بممارسة حرية الإرادة بشكل ينثر عدم المساواة ويحد من حريات الآخرين، فإن أخلاقيات حرية الإرادة تقضى بأن هذه الانتهاكات تعتبر ظلمًا وخطأ وطغيانًا؛ ولذلك فإن اليهود والمسيحيين والمسلمين ـ على وجه الخصوص ـ يتمتعون بحس عالٍ من العدالة الاجتماعية، وهم حريصون على تطبيق العدالة الجزائية.

سوف نطلق على هذه المجموعة من الأفكار الجوهرية للتوحيد وما يصاحبها من الحرية والمساواة والإخاء والعدالة الاجتماعية تسمية «ملة إبراهيم». و تشكل هذه الأفكار اللب الأساسى للديانات السماوية المعروفة اليوم باليهودية والمسيحية والإسلام[٣]. وتتطلب ملة إبراهيم أن تكفل المجتمعات لأفرادها الحريات التى تقتضيها الكرامة الإنسانية، وحرية أن يقف الإنسان أمام ربه ويمارس اختياراته دون إكراه من المجتمع. بل إن هذا المبدأ لا يتماشى مع التوحيد وحسب ـ بمعنى أن أفكارنا عن الله يجب أن تقوم على أساس وحدانية الله وسموه وتنزهه عن الوصف ـ بل يتسق أيضًا مع قضايا علم الاجتماع وعلم السياسة، ومع الكيفية التى يجب أن تبنى بها هياكل المجتمعات، أى أن هيكل المجتمع يجب أن يقوم على أساس المساواة وحرية الإنسان والعدالة الاجتماعية.

ربما يتساءل القراء عن السبب الذى يجعل الموحدين يقولون إن إبراهيم «أبونا جميعًا» دون أن يقصروا ذلك على ديانات التوحيد؛ وبالرغم من حقيقة أن الهند والصين واليابان ليست مجتمعات موحدة فى عمومها، فإنها تعمل على نحو متزايد على تطبيق أنظمة حكم ديمقراطية ـ وهى أنظمة راسخة فى مفهوم المساواة بين البشر؛ ولذلك فهى تنبثق عن ملة إبراهيم. وهذا المفهوم جوهرى فى فطرة الطبيعة الإنسانية.

لم يكن من الصواب فى مجتمعات الشرك على عهد إبراهيم الزعم بأن الحرية والمساواة والإخاء والعدالة الاجتماعية كانت أساسية للظرف الإنسانى ، فمثل هذا الحديث لم يكن ثوريّا وحسب؛ بل كان يتطلب تغييراً جذريّا فى نموذج الفكر الاجتماعى. وفى حين أن النبى الذى كان يدعو إلى تلك الرسالة ربما كان يحظى بالشعبية بين الطبقات الفقيرة والمحرومة فى مجتمعه، فقد كانت الرسالة ذاتها تمثل تهديداً ينذر بحرمان الطبقات العليا فى المجتمع من المركز الخاص الذى تتمتع به؛ وفى معظم الأحوال كانت النخب التى تملك القوة الراسخة الجذور فى تلك المجتمعات تشن حروبًا ضارية ضد أى نبى يدعو لتلك الرسالة. ولم تفلح محاولات إبراهيم فى إقناع قومه بفكرة الإيمان بإله واحد ـ الله الذى لا تحيط به القدرة البشرية، والذى ليس كمثله شىء. ويقرر القرآن بأن أولئك الذى رفضوا دعوة إبراهيم استحثوا أقوامهم للتحرك ضد إبراهيم بدعوى أنه أشرك بآلهتهم، حيث يقول: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ٦٨] وأنقذ الله إبراهيم بأن أمر النار بقوله: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الأنبياء: ٦٩]

ويأتى القرآن ليرثى نزوع الناس إلى إنكار أنبياء الله الذين أرسلوا لهداية البشرية فيقول: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ [البقرة: ٨٧]

لم يكن الأنبياء موضع الترحاب، بل على العكس كانوا محط الهجوم وإنزال العقاب بهم والنفى من بلدانهم لا لشىء سوى أنهم حاولوا إقناع معاصريهم بحقائق التوحيد. ولم يكن إبراهيم بدعًا من الأنبياء، فقد واجه نفس المصير، واضطر للخروج من بلده ومن تبعه.

ملة إبراهيم: ما هى إلا فطرة بشرية

يقرر القرآن الكريم(٤) أن الإيمان بوحدانية الله وما يعنى ذلك من الالتزامات

الاجتماعية التى يفرضها التدين الحق أو الصادق، هو سنة الله التى فطر الناس عليها كجوهر الضمير الإنسانى، وأن الله أمر البشرية بالاحتفاء بها: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[٥] [الروم: ٣٠]؛ والمقصود من هذه الآية الكريمة أن أى إنسان، من ذكر أو أنثى، ينصت إلى صوت قلبه وضميره سيوقن بوحدانية الله، وأن البشر جميعًا أسرة واحدة، وعليهم أن يكونوا أحرارًا، وأن يتعاملوا مع بعضهم البعض بالإنصاف وبمقتضى العدل[٦].

ولذلك فالمسلمون يرون أن دينهم هو «دين الفطرة» بمعنى الصلاح الذى ينبع من الطبيعة البشرية، والأفعال التى نعتبرها صوابًا وأخلاقية كما هى بينة بذاتها، والهبة التى أسبغها الله على البشرية جمعاء، والورع الذى نولد عليه قبل أن يتدخل آباؤنا فى تشكيل معتقداتنا حسب ما تقره الأعراف الاجتماعية. وعلى ذلك يكون الذين يمارسون ما تمليه قلوبهم هم من يتبعون الدين الحق.

«دين الله» (آل عمران: ٨٣، النصر: ٢) هو ما يطلقه الله على التدين الفطرى، وهو شىء منحه الله للملكات البشرية الحاسمة من عقل وفهم. ومضمون هذا الدين ملزم بصورة عامة؛ فعلى جميع البشر تنفيذه؛ حيث إنهم مؤهلون منذ ولادتهم بكل ما يلزمهم لإدراك هذا الدين. وركنه الأساسى هو الإقرار بأن الله واحد، هو الله الحق ولا إله غيره. ثم يدور ما تبقى حول عبودية المخلوقات أمام خالقهم، وهى العلاقة التى لا يمكن أن تكون سوى حب العبادة و إقامة الشعائر الدينية: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**[٧] **(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧]. وتتضمن تلك العلاقة ملاحظة النعم الإلهية التى يمكن إدراكها عن طريق العقل الذى ميز الله به جميع البشر. حيث إن التعرف على الله هو مهمة كل فرد وحقه، كما أنه متاح للجميع؛ لأنه أسمى واجباتهم.

يؤكد القرآن على شمولية ملة إبراهيم عندما يوجه السؤال التالى: ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ومضمون الآية هو أن هذه الملة تحل منزلة الإنسان، وتدعو بنى البشر إلى احترام كرامة الرجل أو المرأة كبشر، ولا تؤيد أيّا

من الممارسات الدينية أو الاجتماعية التى تفرق بين البشر عند ولادتهم، والتى تحدد قدراتهم من عدمها تبعًا لطبيعة معرفتهم لله. فمثل هذه المعتقدات تعفى من تراهم غير قادرين على أداء الواجب الأسمى لعبادة الله الواحد والاعتراف بذلك، وهى بذلك تحرمهم من جوهر إنسانيتهم.

هذا التدين أو الورع الفطرى هو المعيار المطلق لكل البشر. وهو بحكم التعريف لا يسمح بأى استثناء. فعلى الرغم من أنه لا يجبر أى فرد على احترام ذلك التدين أو الورع الفطرى، إلا أنه يعارض ويدين بشكل صريح أولئك الذين يقومون أو يسمحون بانتهاك تلك العقائد، وإلا ستفقد انسجامها مع نفسها. «إله الوجود» هكذا يصف الله ذاته العليا فى القرآن، وذلك باستخدام عبارات متنوعة لوصف الوجود، على سبيل المثال: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿**رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ [النبأ: ٣٧]، ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ [المزمل: ٩] وغيرها من الآيات. تظهر ملة إبراهيم ـ التى تعد السمة المميزة لليهودية والمسيحية والإسلام فى تطبيقاتها العملية ـ على أنها مطلب طبيعى، كما أنها هى شرط منطقى ضرورى، وحقيقة حاسمة.

لذلك، فإنه لم يكن من الصدفة أن يصبح نداء الثورة الفرنسية: «الحرية، المساواة الإخاء» للبشر، وهى المكونات الأساسية لملة إبراهيم. كما لم تكن مصادفة أن أشار واضعو «إعلان الاستقلال الأمريكى» إلى ملة إبراهيم باعتبارها «حقائق جلية بذاتها: كل البشر خلقوا متساوين، وهبهم خالقهم حقوقًا محددة غير قابلة للتنازل عنها». إن قوانين الإبداع الخاصة بالخالق هى بحكم التعريف قوانين الطبيعة، وبما أن الطبيعة هى تجل لإبداع الله، فإن قوانين تلك الطبيعة هى قوانين الله: إن القانون الفطرى هو قانون إلهى. وهكذا يستمر البرهان على أن ما تشعر به فى قلبك من خير وحق هو بالضرورة أساس القانون الإلهى.

تمييز الخير من الشر

على مدار التاريخ البشرى، كان أساس الاعتقاد الدينى ـ سواء كان يدعو لإله واحد أو يقول بوحدة الوجود ـ هو قناعة البشر الداخلية بأن كل شىء فى الكون هو نتاج قوة مبدعة

واعية تحيط بكل شيء، هى الله ببساطة. إن هذه القوه تقوم بعملية الخلق عن طريق الإرادة، والتى ندعوها الإرادة الإلهية؛ ولذلك فإن كل ما هو موجود يتفق مع هذه الإرادة.

إن الوجود الإنسانى هو نتاج هذه الإرادة والقوة؛ ولذلك فهو خاضع لها. بما يعنى ـ بحكم التعريف مرة أخرى ـ أننا خاضعون لتلك الإرادة والقوة. لقد خلقت وشكلت وجودنا المادى مثله مثل شهوات وجودنا المادى؛ فالشعور بالجوع والعطش من الصفات التى جبلنا عليها، فنعالج الجوع بتناول الطعام، ونعالج العطش بإروائه، وعندما نشعر بالشبع فإننا نخضع لهذا الشعور بالتوقف عن تناول الطعام أو الشراب. وعلى الرغم من أننا نتمتع بإرادة خاصة بنا إلا أن هذه الإرادة لها حدود. إذًا، نحن نستطيع أن نقرر أن نشرب أو لا نشرب، أن نفرط فى الأكل أو الشرب، لكن لا نستطيع عند نقطة معينة تناول المزيد من الطعام حتى إذا أردنا ذلك. وبالإضافة إلى كياننا المادى، هناك أيضا جانب انفعالى أو عاطفى لهذا الكيان، وقدرة عقلية على التفكير تتمثل فى العقل، كما أن لدينا جانبًا روحانيًا لوجودنا يتمثل فى الروح. فنحن نعرف أن الإسراف فى تناول الطعام مضر بالصحة، وحتى دون الحاجة إلى استخدام قدراتنا الفكرية؛ لأننا ندرك أن ذلك ليس فى صالحنا؛ إنه مضر، وبالتالى فهو خاطئ.

إن الخير هو الذى ينفع الخليقة، والشر هو الذى يضرها، ومن ثم فإن مفهومنا عن الخير يتحدد بناء على النفع أو الضرر الذى يعود علينا. فهذه الدينامية لمراعاة المصلحة الشخصية هى التى تثير الخلاف والتضارب عندما يصبح ما ينفعنى يضر غيرى. أما التوافق فيتم بين شخصين أو أكثر عند التوصل إلى وسيلة يشعر من خلالها كل شخص أنه استفاد. إن المصلحة العامة، أو ما هو صواب، هو ذلك الذى يعظم الخير لكل عضو فى الجماعة، ولمصلحة الجماعة بأكملها.

لكن إرادتنا الإنسانية موجودة بفضل الإرادة الإلهية، والتى تمكنها من أسباب القوة وترعاها. والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: هل للإرادة الإلهية اهتمام ما أو تفضيل لنتيجة ما عندما يمارس البشر إرادتهم؟ والإجابة الموجزة هى: نعم. إن التفضيل الإلهى هو أن يخضع البشر ـ باختيارهم الحر ـ لما أوصانا الله به، وقد تمت صياغة الوصية بإحكام فى أمرين أوصى الله البشر بهما:

١ـ أن نحب الله الواحد الفرد الصمد الذى لا إله غيره من صميم قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وبكل قوتنا.

٢ ـ أن نحب إخواننا فى الإنسانية ـ بغض النظر عن عرقهم أو دينهم أو خلفيتهم الثقافية ـ كما نحب أنفسنا.

واتباع الوصيتين السابقتين يعنى أننا التزمنا مفهوم الخير كما بينه لنا الخالق. وعدم اتباع هذه المبادئ يعنى أننا التزمنا مفهوم الشر أو السوء كما بينه لنا الخالق. وبما أن الله كامل بحكم التعريف، فإن تعريف الخالق للخير هو الأقرب لنا ـ نحن الكائنات التى لم تخلق كاملة ـ لكى نستطيع تحقيق الخير المطلق. إن كل الفضائل والخير العام والقيم الأخلاقية تعتمد على تنفيذ هذين المبدأين فى التطبيق.

عندما نحب شخصًا ما، فإنه من الطبيعى أن نحب ما يحبه، أى أننا نعبر عن هذا الحب بأن نوفق ما بين حبنا وكل ما يحبه أو يفضله المحبوب؛ ولذلك فلكى نعبر عن حبنا لله، الكامل، علينا أن نحب ما أوصانا به.

يصب الكثير من المتدينين جل اهتمامهم على الوصية الأولى، وهى التى تدعو إلى حب الله وعبادته، بينما لا يولون أى اهتمام لإخوانهم فى البشرية. سئل المسيح عيسى ذات مرة عن أفضل الوصايا، وبعد أن ذكر الأولى أكد على الأهمية ذاتها للوصية الثانية حين قال: «والثانية مثلها... بهاتين الوصيتين تتعلق الشريعة وكتب الأنبياء» [متى: ٢٢: ٣٩ ـ ٤٠].

عندما قام أحد الوثنيين ذات مرة بتحدى «هليل» وسأله أن يلخص التوراة بأكملها وهو واقف على قدم واحدة، أجابه «هليل»: «كل ما تكرهه لا تفعله مع غيرك من البشر، هذا هو كل ما فى التوراة، والباقى ما هو إلا تفسير، فاذهب واقرأه» (شابات ٣١ أ). وقد أكد الحاخام أكيبا أن المبدأ الرئيسى فى التوراة هو: **«أنك ينبغى أن تحب جارك كما تحب نفسك»**(Bereshit Rabbah 24) [٨]

إن محبة الله لا تكتمل فى قلوبنا إلا عندما نحب ما يحبه الله. كما لا تكتمل بالضرورة إذا لم نحب أنبياءه ورسله، وهو ما تؤكده الآية القرآنية: ﴿**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه**﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وهذا يعنى عدم القول بأن «نبيى أفضل من نبيك». كما تشير الآية إلى أننا لا يجوز أن ندعى أن الأنبياء بعثوا برسالات مختلفة، بل أن نؤكد أنهم جميعًا بعثوا برسالة واحدة.

لقد أخبرنى والدى ذات مرة أنه عندما كان طفلاً صغيرًا، سأله والده: «محمد، يا بنى، هل تستطيع أن تتخيل أن يحب شخص ما شخصًا آخر أكثر مما يحب نفسه؟» وإذ حير السؤال والدى ولم يعرف له جوابًا، فوجئ بإجابة جدى عندما أضاف: «أنا أحبك أكثر مما أحب نفسى»؛ هذا هو الحب الأبوى الذى يضحى بنفسه من أجل مصلحة ابنه.

إن علاقة الوالدين بالأبناء تعكس حب الله لعباده[٩]. فالوصية الأولى هى أمر الله للبشر أن يتبادلوا الحب الإلهى الموجه لهم، أما الوصية الثانية فهى أن يتعاملوا مع بعضهم البعض بحب متبادل. إن الله كامل، أما نحن فكائنات عارضة؛ لذلك فعلينا بقدر استطاعتنا أن نحب الله بشكل مطلق «من صميم قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وبكل طاقتنا»؛ ولأننا جميعًا ولدنا متساوين، ولنا حقوق متساوية، ومن رجل واحد وامرأة واحدة، فعلينا أن نسعى إلى أن نحب بعضنا البعض تمامًا كما نحب أنفسنا.

إن الرسل هم قدوتنا، فهم النافذة التى نبصر من خلالها الوجود الإلهى والإرادة الإلهية متمثلين فى أنقى وأرقى صورة للسلوكيات والأخلاق الإنسانية؛ ولذلك فإن الأنبياء يمثلون أفضل ما فى الإنسانية، وهم مجموعة منتقاة ممن يطلق الله عليهم فى القرآن «أولياءه»، وهم أيضا الذين نطلق عليهم فى اللغة الإنجليزية «قديسين». ومن بين جميع البشر، علينا أن نحب ونكرم الأولياء أكثر من أية فئة أخرى من البشر؛ ولأنهم تشربوا الوجود الإلهى فلهم حب أكثر من البشر الذين لم يتشربوا هذا الوجود، وقد قال الرسول ذات مرة: **«إذا كنتم تحبونى، فأحبوا من أحب»**، وهى الدعوة التى تنبع من مبدأ أننا إذا كنا نحب الله فإن ذلك الحب لا يكتمل إذا لم نحب من يحبه وما يحبه الله عز وجل.

لن يتوقف الصراع الدينى بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ـ وأى من أصحاب الديانات الأخرى ـ إلا عندما يتوصلون جميعًا إلى وسيلة تساعدهم حقّا على الالتزام بهذه التعاليم الدينية المشتركة، وأن يعاملوا بعضهم البعض بالطريقة التى يحبون أن يُعامَلوا بها.

رؤية نبى الله إبراهيم للمجتمع الصالح

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الآية القرآنية: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ [البقرة: ١٣٠] التى توضح أن من أراد أن يتخذ شيئًا آخر غير دين إبراهيم فقد جلب الخزى لنفسه أيضًا. إن الله أمر إبراهيم قائلا: «أسلم»، فأجابه «أسلمت لرب العالمين»، كما يصف القرآن الكريم إبراهيم بأنه «مسلم» (البقرة: ١٣٠ـ١٣٦ والحج: ٧٨) ويُعرف الإسلام بأنه التسليم لله باتباع المبادئ التى تم شرحها سابقًا، والتى تُشكِّل الملة الإبراهيمية[١٠]؛ ويواصل القرآن فى الآيات التالية تأكيد الحديث عن الإسلام: ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٢ـ١٣٣]

وقد أمر إبراهيم ابنه إسماعيل (ولده من زوجته هاجر) وإسحاق (ولده من سارة) بأن لا يعبدا إلا الله الواحد، وبدورهما أمرا أبناءهما بنفس الأمر، وكان ليعقوب (ابن إسحاق والذى عرف فيما بعد بإسرائيل) اثنا عشر ولدًا، وهم الذين أسسوا القبائل التى عرفت مجتمعة ببنى إسرائيل؛ لذلك فإن العرب يأتون من نسل إسماعيل، واليهود يأتون من نسل إسرائيل أو أبنائه.

إن مبدأ التوحيد محفوظ فى العبارة التى علمها النبى موسى لأتباعه ونصها: «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد»، وعلى الرغم من أن موسى كان يخاطب بها بنى إسرائيل، إلا أن الخطاب فى الواقع موجه لبنى آدم جميعًا، ويؤكد أن إلهنا واحد. كما تظهر الاستجابة الإنسانية لهذه الدعوة بصورة قاطعة فى الشهادة التى علمها محمد ﷺ أصحابه: «أشهد أن لا إله إلا الله».

ينظر القرآن لكل الأنبياء الذين ذكروا فى الكتاب المقدس والذين جاءوا لإعلان هذه التعاليم ـ مثل هارون وموسى ويحيى وعيسى المسيح ـ على أنهم أسلموا كلية لله؛ إذًا فهم مسلمون. لقد بعث الله الأنبياء جميعًا ليكرروا نفس الرسالة التى تدعو إلى التسليم

لله الواحد، ويحكموا بما أنزل من معايير وشرائع كما جاء فى سورة المائدة (الآيات: ٤٤، ٤٧، ٤٨) وهى كلها تشمل تنفيذ خير وصيتين دعا لهما كلٌّ من موسى وعيسى ومحمد وكرراهما وأكداهما: «أحبوا الله لأقصى درجة، وأحبوا إخوانكم من بنى آدم بنفس الدرجة».

بعد أن هجر إبراهيم موطنه، سافر خلال البلاد التى تعرف الآن بالعراق والأردن وفلسطين والجزيرة العربية ومصر، ساعيًا إلى إنشاء مجتمع يقوم على عقيدة التوحيد، ويكون تحت حكم الله، الذى يقيم هذه المبادئ ويضفى عليها طابعًا مؤسسيّا، ولكن إنشاء هذا المجتمع لم يكن مهمة سهلة فى المحيط الاجتماعى لهذا الوقت، فكان لزامًا عليه أن يبدأ سجل أعمال من جديد فى مكان على التخوم، حيث لا تسود أى أعراف اجتماعية سابقة.

وتوضح قصة أبناء إبراهيم ـ كما أوردتها الأخبار فى الكتاب المقدس وذكرها القرآن والحديث ـ الصعوبات التى واجهتها عملية إرساء عقيدة التوحيد فى عالم يسيطر عليه الشرك بمجتمعه المنقسم إلى طبقات.

أخذ إبراهيم هاجر وطفلهما الرضيع إسماعيل وتركهما وحيدين فى واد غير ذى زرع. وطبقًا للروايات الإسلامية، فهذا المكان فى وقتنا الحاضر هو مكة، والتى تقع فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة العربية على بعد ٤٠ ميلاً إلى الداخل من الساحل الشرقى للبحر الأحمر. وسألت هاجر إبراهيم عما إذا كانت إرادة الله أن يتركهما فى هذا المكان، وعندما رد عليها بالإيجاب، استسلمت لهذه الإرادة الإلهية ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ولما نفد منها الماء أخذت تروح وتأتى بين تلين صغيرين باحثةً عن الماء حتى اكتشفت بمعجزة إلهية البئر التى تعرف الآن ببئر «زمزم»[١١]، ولاحظ بعض المارة من البدو طيوراً تحلق فوق البئر، فتوقفوا ليستكشفوا الأمر، ولما وجدوا هاجر طلبوا منها السماح لهم بالسقاية من البئر؛ لأنه كانت لبئر الماء فى الصحراء آنذاك قيمة أكبر من قيمة من بئر البترول فى وقتنا الحالى، ولم يكونوا ليسمحوا لأنفسهم أن يأخذوا الماء من هاجر دون موافقتها،

وسمحت لهم هى بالسقاية من البئر، ومكث بعضهم معها ليصيروا بذلك أول سكان لمكة، وهذه هى القصة التى تخبرنا عن تأسيس إبراهيم وهاجر وإسماعيل لمدينة مكة.

وكان إبراهيم يقوم بزيارة هاجر وإسماعيل من وقت لآخر؛ لكى يطمئن على حالهما، وبعد مرور السنوات، عندما كبر إسماعيل وبلغ سن البلوغ، عاد إبراهيم والتقى بإسماعيل وأمرهما الله ببناء بيت يعبد فيه الله الواحد وهو الكعبة التى بنيت على شكل مكعب بسيط، يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾

[البقرة: ١٢٥ـ١٢٩]

ويستشهد القرآن بإبراهيم وهو يصلى إلى الله قائلاً: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ١٢٦].

المثالية فى مواجهة الواقع: الإمساك بالدين أمر صعب

على الرغم من أن ملّة إبراهيم فطرية فى الطبيعة الإنسانية إلا أن هذه الطبيعة لديها ميول قوية لانتهاكها. وقد استشهدت فى السابق بالنقد الذى وجهه القرآن الكريم لأولئك الذين عاصروا الأنبياء، والذين ادعوا فى الظاهر أنهم أتباعهم لكنهم خالفوا ما تدعو إليه رسالتهم.

تطلبت مهمه الحفاظ على التوحيد الخالص والمبادئ الأخلاقية للعقيدة الإبراهيمية تتابع الأنبياء؛ لكى يذكروا ويؤكدوا على رسالة إبراهيم الأساسية. لكن لم هذا التذكير؟ لأن النسيان من صفة البشر، كما ينص القرآن الكريم، فإن كان هناك شىء فى وجهة النظر الإسلامية يقترب من الفكرة المسيحية عن الخطيئة الأصلية، بمعنى أنه شىء يمكن أن يوصف بأنه عيب البشر أجمعين، فهو أن جميع البشر يسهون. وهذا لا يعنى زللاً فى الذاكرة بمقدار ما يدل على زلل فى تطبيق ما نعرفه، فنحن ندرك الصواب، ولكننا على أية حال نفعل ما نعرف أنه خطأ ـ وربما أيضًا نستمتع بفعله.

وبصورة عامة، وعلى الرغم من أننا ندرك أن الوصايا المرسلة إلينا صحيحة من الناحية الأخلاقية، إلا أننا لدينا نزعة قوية نحو عدم اتباعها، فحبك لشخص ما «كحبك لأخيك» لن يساعد أحداً إذا كان هذا الحب كحب قابيل لأخيه هابيل، والذى أدى إلى قتله؛ لذلك فإننى أنصح جماعة المصلين بأن يتحققوا من الشخص الذى يقول لهم «إننى أحبك مثل أخى»، ولقد فهم الأنبياء هذا جيداً؛ ولهذا السبب فإن القاعدة الذهبية تقول: أن نحب الآخرين كما نحب أنفسنا، وما دون ذلك فلا جدوى منه. ولأن نبينا محمداً ﷺ أيضًا كان يدرك أن حب البشر لبعضهم البعض كأنهم إخوة وأخوات لم يكن كافيًا، وربما لأننا أحيانًا ما نعامل جيراننا بصورة أفضل من معاملتنا لأشقائنا، فقد صاغ الوصية الثانية لصحابته فى الحديث التالى: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١٢]. من مفارقات القدر، أننا كلما زاد قربنا من شخص ما، زاد التوتر والخلاف، وأدى إلى زيادة الحاجز بيننا على نحو مؤكد. كم عدد الذين يشعرون بالسعادة منا وليس بالحسد عندما ينجح الآخرون، أو عندما يحصلون على شىء لم يعط لنا؟

وهناك عامل يسهم فى تحدى تطبيق ملة إبراهيم هو الصعوبة التى يواجهها الناس فى عدم فهم الأشياء إلا عند ربطها بأنفسهم فرديّا أو جماعيّا. فعلى سبيل المثال، تثير كلمة «المسيح» صوراً مختلفة عند البشر المختلفين، حيث يصوره المسيحيون الأوروبيون عادة على أنه أزرق العينين وأشقر الشعر، أما المسيحيون فى المكسيك فيصورونه على أنه كان أسود العينين وأسود الشعر، والواضح أنه لا يمكن أن يكون المسيح فى هاتين

الهيئتين فى وقت واحد، ولكن المقصود هو أن الناس يميلون إلى أن يشكلوا فى ذهنهم صورة خاصة بهم للشىء كما يتراءى لهم من منظورهم الشخصى، وهى صورة عادة ما تكون غير دقيقة مفروضة على فهمهم لهذا الشىء. بيد أنه لن يشكل هذا المثال أى ضرر طالما قرر المسيحيون الأوروبيون والمكسيكيون أن شكل المسيح عنصر غير حيوى لفهم حقيقته، وهو بذلك لا يستحق أن نتقاتل عليه.

وتثور قضايا أكثر أهمية حول كيف ينظر المسيحيون إلى المسيح من الناحية الروحانية، فالكاثوليك يعتبرونه «ابن الله الذى لم يولد»، والذين أنكروا بنوة المسيح لله وفندوها حتى القرن السابع عشر كان يتم إحراقهم باعتبارهم ملحدين بسبب هذا الخلاف فى الرأى.

وعندما يتعلق الأمر بالدين، يحتفظ كلٌّ منا فى ذهنه بصورة ما حول ماهية ربه ودينه. وفى هذا، فإننا لا نختلف كثيراً عن الطفل «جونى» الصغير الذى كان يرسم على السبورة، وعندما سألته المعلمة: «ماذا ترسم؟» أجابها بأنه يرسم الله، فردت المعلمة سريعًا: «ولكن لا أحد يعرف ماهية الله»، فأعلن جونى بزهو نافخًا صدره: «سيعرف الجميع بعد أن أنتهى من الرسم». فنحن ـ على ما يبدو ـ نحاول على الرغم من علمنا أن رؤيتنا لن تفى الذات الإلهية حقها، فإننا لا نستطيع مقاومة هذه الرغبة العارمة. عندما يناقشنا شخص ما فى مفهومنا عن الله، فإننا نستاء للغاية من ذلك، ولكن عندما يبعث الأنبياء ليصححوا مفاهيمنا فإننا نعاملهم بصورة أكثر سوءًا، مثلما حدث مع إبراهيم ومحاولة حرقه، أو عيسى ومحاولة صلبه باعتبارهما مهرطقين.

يشير القرآن الكريم لهذه النزعة الإنسانية، عندما يسأل: ﴿ **قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [الحجرات: ١٦].

ونجد فى قصة بنى إسرائيل خير مثال على ميل البشر هذا لابتداع صورة الله على صورتهم الخاصة. فعندما دعاهم يوسف لكى يفروا من المجاعة التى اجتاحت فلسطين، هاجروا إلى مصر؛ حيث عاشوا فى رخاء لعدة قرون إلى أن جاء عهد رمسيس، الفرعون الظالم، الذى استعبدهم. بعد ذلك، أرسل الله لهم نبيه موسى ليحررهم، وهو إسرائيلى، ولكنه نشأ وترعرع كأمير فى قصر فرعون. وبعد بعض

المعجزات المثيرة للغاية، مثل تحول مياه النيل إلى دم، والتهام الجراد للمحاصيل، وغيرها من المعجزات، سمح أخيرًا ـ وعلى مضض ـ لموسى أن يحرر بنى إسرائيل من نيره. كان فرعون غاضبًا من موسى؛ لأنه كان يرى أنه ابن الله، فكيف لهذا الشخص مجهول النسب، هذا الذى يعانى صعوبة فى النطق (كان لديه لثغة) والذى قام بتربيته على أنه أخوه غير الشقيق، أن يكتسب نوع القوة التى كان فرعون يفترضها لنفسه؟ ولما اكتشف فرعون أن قوة إله موسى تفوق قوته كان ذلك كافيًا ليجعله يبدو شاحب الوجه. وفى النهاية، استطاع موسى أن يعبر ببنى إسرائيل إلى سيناء، وخلال الرحلة تركهم تحت إمرة أخيه هارون؛ لكى يصعد هو إلى جبل سيناء ليشكر الله ويكلمه.

وسيجد القارئ فى عصرنا الحديث أنه من العجب أن بنى إسرائيل، بعد كل هذه المعجزات ـ التحرر من العبودية وخروجهم من مصر ـ قد جادلوا هارون ليبتدعوا ويعبدوا عجلاً من ذهب (الأعراف: ١٤٨، طه: ٨٣ ـ سفر الخروج، ٣٢). لقد أرادوا أن يقدسوا الله بالطريقة التى اعتادوا عليها بعد أن أدت القرون التى عاشوها فى مصر إلى تشكيل نظرتهم الثقافية وذوقهم فى الطعام، فقد تعبوا من المن الذى أرسله لهم الله من السماوات، و أخذوا يتذمرون منه!

الحفاظ على الإيمان عبر الثقافات والأجيال

لقد واجه أتباع موسى ـ أثناء فترة الشتات التى قضوها فى صحراء سيناء ـ اختبارًا صعبًا يتطلب منهم الاكتفاء بالأكل من المن الذى أرسل إليهم من السماء. ، كما يرسم لنا الكتاب المقدس صورة واضحة فى الإصحاح الحادى عَشَرَ من سفر العدد: فعاد بنو إسرائيل يبكون قائلين: «من يطعمنا لحمًا؟ لقد تذكرنا سمك مصر الذى كنا نأكله مجانًا، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم، أما الآن فقد فقدنا شهيتنا وهزلنا، وليس أمام أعيننا سوى هذا المن» [العدد: ١١ : ٤ ـ ٦]. ويصف القرآن الكريم شكوى بنى إسرائيل فيقول: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا** ﴾ [البقرة: ٦١]. أى أنهم كانوا يريدون طعام الدنيا وليس طعام الجنة.

قبل أن نتسرع فى إلقاء اللوم على بنى إسرائيل بسبب هذا، فلنلقى نظرة على الجيل الأول من المهاجرين من الأمريكيين والذين عرفوا بالتدين الشديد. أعرف صديقًا رفض والده ـ الذى كان قد هاجر من النرويج وكان يؤمن بالمذهب البروتستانتى ـ الذهاب إلى الكنيسة بعد وفاة كاهنه ومجىء كاهن جديد من ألمانيا، فقد كان يريد أن يعبد الله بالطريقة التى اعتادها، وهناك أيضًا العديد من المسلمين الذين هاجروا من الهند وباكستان ويصلون فى مسجدى، يصرون على رفع أطراف سراويلهم إلى أعلى الكاحل؛ وذلك لأنهم تعلموا فى بلادهم أن صلاتهم غير صحيحة إذا لم يفعلوا ذلك (وهذا غير صحيح). ولقد لاحظت أن المسلمين الأمريكيين الأشد ورعًا والذين هاجروا من مصر وتركيا وباكستان والسنغال وإندونيسيا غير راضين بالمرة بوجبة شريحة اللحم والبطاطس وفطيرة القرع، ويمكن استخدام لغة الكتاب المقدس فى وصف حالتهم بالقول إن «أرواحهم سوف تيبس» وربما صلاتهم وصيامهم فى رمضان أيضًا، إذا لم يأكلوا وجباتهم المفضلة مثل الفول والكباب ولحم الحمل مع الكارى (من التوابل) وبريانى الدجاج (وجبة هندية) والسوبو دى كنجة والإربيان مع صلصة السمبلس (وجبة من جنوب شرق آسيا)، ناهيك عن البقلاوة الشهيرة والتى تم إعدادها تمامًا كما نعدها فى أوطاننا، وأيضًا أطباق رس ما ليس وجولاب جامونس الشهية.

كان لى زميل أمريكى عملت معه لفترة، يسافر كثيرًا فى رحلات عمل إلى باريس، وبعد تناول الطعام الفرنسى لمدة أسبوع شعر بالحنين لتناول وجبة شطيرة «بيج ماك» الخاصة، فكان يسعى إلى أقرب محلات ماكدونالدز لتناول الهمبورجر والبطاطس المقلية مع مشروب الكولا الكبير. لقد كان يشعر بالسعادة الغامرة التى تبدو فى عينيه عند تناوله تلك الوجبة والتى لم تكن لتقارن بأى شىء موجود فى محلات «فوشون» الفرنسية. كما أعرف أيضًا زميلاً مسلمًا آخر يصلى الجمعة فى مسجد معين فى منطقة «كوينز» بمدينة نيويورك حيث كان باستطاعته أن يشترى بريانى الدجاج، وهو ما يعتبره أفضل وجبة، والتى يحصل عليها عادة بعد الصلاة بثلاثة دولارات. إن الطريق إلى أنفسنا يمرّ عادة عن طريق قلوبنا، والطريق إلى قلوبنا يمرّ عن طريق المعدة وحاسة التذوق.

وخشية أن لا يصدق القارئ أننى أتحدث جديّا، دعونى أذكركم بأن هذه حقيقة مقدسة ذكرت فى كلٍّ من الكتاب المقدس والقرآن الكريم، فإطعام الفقراء عمل خيّر فى جميع الأديان، وهو واجب تقوم به كل حكومة تتميز بالحكمة والاهتمام بشعبها؛ وذلك لأن الناس عندما يعانون من الجوع فإنهم يثيرون تمردات معادية تجاه الحكام الذين يتسببون فى موت شعوبهم من الجوع. نحن لا نشعر بالرغبة فى تناول الطعام فقط، بل إننا نريد تناول أنواع معينة من الطعام.

ربما كانت مدة الأربعين عامًا التى تاه فيها بنو إسرائيل فى صحراء سيناء مطلوبة لإتاحة الفرصة لأن ينشأ الجيل الجديد من بنى إسرائيل فى بيئة التوحيد الخالصة تحت رقابة مشددة من موسى أكثر من أهميتها للقضاء على ارتباطهم بالشرك والوثنية. ولكى نعيد صياغة المثل الأمريكى فإن موسى استطاع أن يخرج بنى إسرائيل من مصر، إلا أنه لم يستطع أن يخرج مصر من بنى إسرائيل. إن العادات القديمة تموت بصعوبة، وربما لا تموت أبدًا؛ ولذلك فربما يقتضى الأمر اختفاء جيل ما والانتقال إلى الجيل التالى؛ لكى تتغير عادات المجتمع وأحواله التى تتصل بقضايا حيوية.

ومن مثل هذه الحكايات، يتضح لنا أن تطور أى مجتمع دينى يتطلب عملاً شاقّا، فالمجتمع الأمريكى المسلم اليوم ـ وفى مطلع القرن الحادى والعشرين ـ لا يختلف عن بنى إسرائيل الذين أمضوا أربعين سنة من الشتات بحثًا عن أرض الوعد؛ حيث يكافح قطاع عريض يقارب ٧ ملايين شخص من شتى أنحاء العالم الإسلامى من أجل أن يضربوا بجذورهم فى أرض أمريكا، ويلد المجتمع الإسلامى الأمريكى حاليًا جيلاً ثانيًا راسخًا فى الثقافة الأمريكية. إن تشكيل مثل هذه الهوية الأمريكية الإسلامية من خلفيات المهاجرين والأفارقة الأمريكيين يتطلب حكمة تشبه حكمة الأنبياء لكى نستطيع أن نجتاز الصراعات وتباين الآراء ولحظات اليأس الشديد والتحديات الكبيرة على طول الطريق.

على مدار حياتنا فرادى عادة ما يتطور تصورنا وفهمنا للذات الإلهية وللدين. ويحدث نفس الشىء على مستوى المجتمع، فكل مجتمع باعتباره جماعة يطورأفكاره الخاصة عن الله وعن الدين. وفى أفضل الأحوال فإننا نعبد الله ليس كما يعرف نفسه،

بل كما نتصوره فى أذهاننا؛ ولهذا فإن من الضرورى وصف الله بأنه غير معلوم لنا فى الأساس.

وعندما يرسل الله لنا نبيًّا ليعلمنا ما نحتاج أن نعرفه، فإن رسالته تصل فى السياق الثقافى واللغوى والفكرى الخاص لبيئة السكان المحليين التى بعث إليها، وتظهر الأخطاء خلال عملية الترجمة هذه، وتتكرر هذه المشكلة من جيل إلى آخر، فالجيل الجديد برؤيته المختلفة نسبيًّا، يبدأ فى إدراك الرسالة باختلاف بسيط، وبعد عدة أجيال يمكن أن ينحرف المفهوم الأصلى تمامًا.

يواجه كل تراث دينى التحدى الدائم الذى يتمثل فى ترجمة عقيدته إلى المفردات المناسبة لوقتها. والمشكلة فى شكلها الأعم هى: «ما هى المبادئ الخالدة لعقيدتنا، وكيف يمكن أن نعيد صياغتها فى ظل التغيرات الحالية؟». إذ يجلب كل عصر تحدياته التى تتعلق بالطريقة التى نؤدى بها الأمور، أو الطريقة التى نفكر بها ونفهم بها الأمور تاريخيًّا.

لقد واجه المجتمع الإسلامى أول التحديات الحرجة بعد وفاة النبى ﷺ. فكيف سيتم الحفاظ على العقيدة؟ من سيقود المجتمع؟ فقد توفى الكثير من الصحابة من حفظة القرآن الكريم خلال بضع سنوات بعد وفاة النبى ﷺ، وقد كانت المشكلة تتمثل فى كيفية الحفاظ على القرآن المحفوظ فى الذاكرة الجماعية للمجتمع من الضياع. كيف يضمنون أنه سيُتلى بطريقة سليمة على ألسنة الأعداد المتزايدة من الشعوب التى لا تتحدث العربية (من المصريين والسوريين والإيرانيين) الذين يمكن أن تحرف لهجاتهم صفاء الكتاب الإلهى المنزل ومعانيه؟. كل ذلك قاد إلى جمع القرآن الكريم وكتابته فى مخطوط صحيح متفق عليه، وتم إرساله فى النهاية لجميع الأمصار مع حافظ معتمد لتعليم التجويد الصحيح، وظن البعض فى البداية أن هذا الأمر بدعة وهرطقة، فالرسول ﷺ لم يفعل ذلك. كيف يمكن تعليم الأعداد المتزايدة من المسلمين أركان الدين والتفريق بين السلوك الحلال والحرام؟. أدى هذا إلى نشأة علم التفسير وعلم الفقه خلال القرون الثلاث الأولى بعد وفاة النبى ﷺ، ولكن مرة أخرى اعتبر البعض أن فى التفسير جرأة واقترابًا من الهرطقة، فكيف يجرؤ مجرد إنسان على التعليق على كلام الله؟

إن هذا التحدى الدائم موضوع مهم فى تاريخ تراث كل الأديان، ففى كل مرة يرسل فيها الله نبيًا كى يكرر ويصحح رسالة إبراهيم، كان أتباع هذا النبى ينتهون إلى اختلافات جوهرية فى الرأى كانت كافية لتقسيمهم إلى طوائف متعددة، ومن أشهر الانقسامات التى حدثت بين ورثة تراث إبراهيم، انقسام المسيحية من اليهودية الذى جاء كنتيجة غير مقصودة لبعثة نبينا عيسى ﷺ . ولأن نبينا محمداً ﷺ بعث لإحياء ملة إبراهيم ﷺ فى ثقافة ولغة فرع إسماعيل من أبناء إبراهيم خلص معظم الناس إلى أن النبى محمداً ﷺ قد بُعث لكى يدعو إلى رسالة تختلف عن رسالات كلٍّ من عيسى ﷺ وموسى ﷺ ، واعتبروها دينًا مختلفًا ومنفصلاً.

من الأمور الجديرة بالملاحظة فى أيامنا هذه هى كيف ينظر اليهود الملتزمون لليهود الإصلاحيين على أنهم ليسوا من اليهودية فى شىء، وكيف يرى المسيحيون الكاثوليك فى أيرلندا أن البروتستانت ينتمون إلى معسكر الأعداء، وكيف أن المسلمين السنة فى باكستان قد فرقوا بين الشيعة والسنة بصورة حادة، لدرجة أننا أصبحنا نقرأ أن الشيعة فى باكستان يتم إطلاق الرصاص عليهم ويُقتلون فى المساجد أثناء تأديتهم لصلاة الجمعة.

والقرآن الكريم ـ الذى يؤمن كلٌّ من السنة والشيعة بأنه كلام الله ـ يؤكد أن الله يقول[١٣]: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** ﴾ [الشورى: ٤٢] وطبقا لهذه الآية، فإن المواقف والممارسات المسببة للخلاف ما هى إلا إشارات تدل على عدم التوحيد والعداء له وللملة إبراهيم، فالتصرف الدينى الصحيح لا يسعى إلى انتصار دينى وتعظيم الذات، بل يسعى إلى التمسك بتعاليم قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ٦٢] وبقوله أيضًا: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٩].

لقد واجهت ملة إبراهيم ﷺ التوحيدية فى بدايتها صعوبة الاستمرار فى الحضارات القوية التى كان يسودها الشرك والوثنية، وكما أشرت فيما سبق فإن الشرك لم يكن يمثل سوى نصف الصراع لبناء مجتمع صالح، أما النصف الآخر فقد تكون من البقايا الاجتماعية الخاصة بالمجتمعات المشركة: وهى تقسيم المجتمع على أساس القبيلة والعرق والطبقة ونوع الجنس والرق، والتى كانت تناقض مبادئ الحرية والإخاء بين البشر، كما لم تكن محاولات استغلال عقول البشر والسيطرة عليها أقل ضرراً.

لقد كانت الحروب فى سبيل الله، على مر العصور والحضارات، فى أفضل أحوالها هى الكفاح من أجل إنشاء مجتمع إنسانى صالح، أى يعكس بصورة حقة ملة إبراهيم ﷺ، وخاصة الوصية الثانية، ولكن البشر أيّا كانوا وجدوا تنفيذ هذا أمراً فى غاية الصعوبة. وظلوا يعودون إلى أشكال العبادة الخاصة بالفترة التى سبقت إبراهيم ﷺ، فمن الناحية العقائدية رجعوا إلى الشرك وعبادة الله بطريقة خاطئة، فى حين من الناحية الاجتماعية حرموا الآخرين من حرية العمل، بل وحرية التفكير، وأخذوا يعاملون البشر على أنهم غير متساوين، وحرموهم من حقوقهم.

ولقد ذكرنا بالفعل قصة قوم موسى ﷺ والصعاب التى واجهتهم لعدم العودة إلى الممارسات المصرية الخاصة فى قضية هامة مثل عبادة الله؛ وفيما يلى المزيد من الأمثلة من التاريخ المسيحى والإسلامى:

* فى الوقت الذى كان ينتشر فيه الدين المسيحى فى روما، لم يتوقف الكثير من الرومان عن إصباغ المسيحية بالصبغة الرومانية، بما فى ذلك ترويع الكثير من أتباع المسيح الآخرين، خاصة الذين يعيشون فى العواصم المسيحية القريبة من القدس مثل أنطاكية. كما أنهم نسبوا للمسيح الكثير من صفات الأباطرة، إذ كانوا ينظرون إلى عيسى ﷺ على أنه ملك الملوك، على الرغم من أنه اعترض على هذا الأمر حين قال: «ليست مملكتى من هذا العالم» (يوحنا، ٣٦:١٨). كما نُسب له المفهوم الذى يفترض أن الإمبراطور ينصب من قبل الله أو بطريقة تتصل بالله، على الرغم من أنه لم يعرف عن المسيح أنه ادعى هذا لنفسه. وأصبح الدين المسيحى هو الدين الرسمى للدولة فى القرن الرابع، وفيما تلا ذلك من قرون كان أى تفسير يخالف

تفسير الكنيسة يعتبر بدعة ضد الدولة، وبالتالى خيانة تستحق عقوبة الموت. أما المسيح وعلى الرغم من أنه هاجم النفاق والأفكار الخاطئة بشدة، إلا أنه كان يدعو الناس إلى تصحيح معتقداتهم عن الله، وأن لا يعرضوا حياة أى شخص للخطر لتبنيه وجهة نظر مختلفة أو رأيًا خاطئًا، ناهيك عن إحراقهم لاتهامهم بالزندقة.

* بعد وفاة النبى محمد ﷺ عام ٦٣٢م، تسللت بعض مظاهر العقلية التى سادت الفترة التى سبقت الإسلام (التى كان يسميها المسلمون بالجاهلية) التى كانت تتناقض مع ملة إبراهيم من جديد إلى المجتمع الإسلامى، إذ تدخلت القبلية العربية فى السياسة الإسلامية، وفى غضون خمسة وثلاثين عامًا تم التخلى عن نظام اختيار خليفة المسلمين على أساس الجدارة، مما أدى إلى سخط المجتمع الإسلامى لصالح نظام التوريث الذى اتُّبع بدلاً منه (كما سنشرح بطريقة أكثر تفصيلاً فى الفصل الخامس). ففى عام ٦٥٦م، أقام الأمويون ـ قبيلة بنى أمية الذين كانوا أشرس خصوم لبنى هاشم (قبيلة النبى ﷺ) منذ الجاهلية ـ حكمًا وراثيًا عاصمته دمشق. وما أن تم تأسيس هذا الحكم الوراثى بدأت كثير من المظاهر الأخرى لعقلية الشرك هذه تعود للظهور مرة أخرى: فأصبح هناك أسرة ذات امتيازات، ثم طبقة من النبلاء (ذوى الامتيازات)، وهذا بدوره أدى إلى وجود طبقة محرومة، وفقدان تدريجى للحريات لصالح طبقات معينة من المجتمع البشرى، وتقسيم المجتمع إلى طبقات بما يتعارض مع ملة إبراهيم ﷺ. تفجر أول الخلافات التى ظهرت بين المسلمين عندما انقسم المجتمع الإسلامى إلى سنة وشيعة، حيث يؤمن السنة بأن خليفة المسلمين لا يشترط أن ينحدر من نسل النبى ﷺ، بينما يرى الشيعة وجوب ذلك؛ ثم توالت الكثير من الأفكار التى تعود بأصولها إلى فترة الجاهلية لتقوض التحرر والحرية الإنسانية مثل:

* فقدان سيادة القانون وسلطة القضاء المستقلة.

* اعتبار الردة مرادفة للخيانة، وبالتالى فعقوبتها الموت.

* استمرار الرق، على الرغم من وجود العديد من الآيات القرآنية التى توصى بعتق العبيد.

* سوء معاملة المرأة واضطهادها.

تواجه المجتمعات والأفراد التحدى الذى يطرح نفسه دومًا والخاص بسد الفجوة بين المُثل والواقع. يمكننا الاعتقاد بأننا نقدر مُثلنا إلا أننا غالبًا ما نكون غير قادرين أو غير راغبين فى أن نجعل واقعنا يتماشى مع هذه المُثل. وحتى إذا كانت لدينا الرغبة فى تحقيق ذلك، وأن الأمر يتطلب عملاً شاقّا.

لذلك، فإن الصحيح فى أى دين أو بناء اجتماعى هو مدى ما يصل إليه الأفراد والمجتمعات من إظهار مبادئ ملة إبراهيم ﷺ بصورة كاملة. والنتيجة الطبيعية لن تقل صدقًا عن ذلك: فالفرد أو المجتمع لا يتسمان بالعدل أو التطور طالما ملة إبراهيم تنتهك أو لا تنفذ بشكل كامل. كما أن القرآن الكريم أكد مرارًا وتكرارًا أن مهمته هى إعادة ترسيخ ملة إبراهيم ﷺ وأن محمدًا ﷺ وكل الأنبياء السابقين قد بعثوا لنفس الغرض، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [آل عمران: ٦٨]. إن الإسلام، كما سيتضح لنا فيما بعد، يُعرف نفسه على أنه النسخة أو الإصلاح الأخيرين لملة إبراهيم ﷺ. فالإسلام ليس دين محمد ﷺ (ولذلك يرفض المسلمون تسميتهم بالمحمديين، وهو الاسم الذى يطلقه عليهم الأجانب) لكنه دين الله الذى أقامه إبراهيم ﷺ وطهره محمد ﷺ من أدران الوثنية والشرك التى ظهرت فيما بينهما من القرون.

إن رسالة الله للبشرية ليست واحدة جوهريّا فحسب، بل إن القرآن الكريم يصف المؤمنين بأنهم هم من آمنوا بـ ﴿**باللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ٢٨٥]، لا نفرق بين أحد من رسله: تتضمن أننا ينبغى أن لا نسعى إلى خلق اختلافات عنيفة بين الرسالات التى جاء بها كلٌّ من هؤلاء الرسل، فالاختلافات تظهر بوضوح أكثر فى التفاصيل عنها فى الجوهر. ويعلق الله فى القرآن الكريم على تاريخ أتباع موسى ﷺ وعيسى ﷺ ومحمد ﷺ فى الآية التالية، يقول فيها الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٣]، (انظر أيضا الآيات من ٤٤ إلى ٥٤ لمعرفة أسماء الرسل). إن التحدى الذى

لا يزال يواجه المجتمع الإنسانى إلى يومنا هذا هو كيفية عبادة الله دون تقسيم أنفسنا، وكيف نضفى طابعًا مؤسسيًا على مثل هذا الفهم الموحد.

يمكن تلخيص ما سبق بالقول بأن ملة إبراهيم ﷺ تجسد التعبير المؤسسى الفردى والاجتماعى الأكثر كمالاً وتوازنًا لهاتين الوصيتين بأفكارهما المحورية التالية:

* التوحيد الجوهرى الذى يتم التعبير عنه من خلال حب الله الواحد بكل كياننا ومن صميم قلوبنا.
* الحرية والمساواة والإخاء بين البشر، والتى يُعبر عنها عندما نحب للآخرين ما نحب لأنفسنا (بمعنى العدالة الاجتماعية)، والعمل على ضمان وحماية هذه المبادئ.

وحيثما يساهم أى موروث دينى ـ سواء أكان إسلاميًا أو غير إسلامى ـ فى تعظيم هذه الوصايا، فإنه يساهم فى نمو وتقدم الإنسانية؛ أما إذا لم ينجح فى تحقيق ذلك، فإنه يساهم فى خلق صراع و مرض داخل مجتمعه وبين مجتمعه والمجتمعات الأخرى.

هل هناك مسلم بين أصدقائك المقربين؟

يتعلم الإنسان المتدين بصدق والذى تربطه علاقات صداقة قوية بأصدقاء مخلصين ينتمون لديانات أخرى كيف يتخلصون من الأخطاء الشائعة. وأبرز هذه الأخطاء هو أن جميع الأديان الأخرى باستثناء دينه الذى يؤمن به يمكن تجاهلها، وأن تكون كل الأديان متماثلة بالضرورة فى أن جميع الأديان على خطأ ما عدا دين المرء الشخصى، أو أن أصحاب الأديان الأخرى فاسدون وآثمون.

يقضى علينا المجتمع المتناغم المتعدد أن نتعرف على أنفسنا وعلى الآخرين الذين يعيشون بيننا. فلا يستطيع أى مسيحى ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ أن يدعى أنه يتبع سوابق المسيح إلا عندما يتقبل وجود أناس آخرين، أذكياء، مرهفى المشاعر، ومثقفين، سواء كانوا مسلمين أم يهودًا أم هندوسًا أم بوذيين أم ملحدين. ونفس الأمر ينطبق على أتباع الديانات الأخرى، كما ينطبق أيضًا على الملحدين الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب

حركة إنسانية علمانية مهذبة ومستقيمة. إذا لم يرتح المسلم إلى عالم يعيش فيه مسيحيون ويهود وهندوس وبوذيون ولاأدريون، فإن هذا الشخص لا يستطيع أن يدعى أنه يتبع تعاليم القرآن والنبى محمد ﷺ.

فى أوقاتنا هذه، لا مفر من التعامل مع المسلمين سياسيّا واقتصاديّا وعلى المستوى الاجتماعى؛ ولذلك سيكون من المفيد أن ندرس الإسلام، ونفهم أن المسلمين أيضًا يشاركون فى الاهتمام بشواغل الوجود الإنسانى الجوهرية.

المسلمون: وافدون جدد على الطريق

يرى المسلمون أن الإسلام هو أحدث نسخة من الدين الذى غرسه الله فى الأرض عندما خلق البشرية. ولأنهم يؤمنون بأن دينهم قصد به أن يكون دينًا للبشرية جمعاء فإنهم يرتبطون بالبشرية على ثلاثة مستويات: للإنسانية كلها كبشر، وللجماعات الدينية كلها كورثة مشتركين لموروثات دينية أنزلها الله، ولليهود والمسيحيين باعتبارهم متلقين مباشرين لملة إبراهيم. إن هذه العلاقات أساسية فى الطبيعة الأصيلة للدين الإسلامى. ولا يقوم الإسلام بدونها. إن دافع الإسلام الطبيعى هو أن يكون دينًا معولمًا يقوم على مجموعة من المبادئ العامة، والتى يمكن للبشر جميعًا الاتفاق عليها.

والمسلمون يعتبرون أن البشرية كلها من خلق الله الذى أنعم عليهم بالعقل والفهم لكى يتعرفوا عليه، فبمثل هذه الهبة لابد لهم أن يعرفوا أن الله هو الواحد المتعال والآخر. و بالإضافة إلى ذلك، فإن المسلمين يؤمنون بأن جميع البشر قادرون على معرفة الله، وأن الناس جميعًا جبلوا فى قلوبهم على دين الفطرة؛ وإذا خالف أى مسلم أيّا من حقائق الكون هذه فإنه بذلك يخالف تعاليم القرآن، وبالتالى يخرج عن تعاليم الإسلام، والتسليم بهذه الحقيقة أمر جوهرى فى إيمان المسلم.

إن شمولية دين الفطرة يدعمها فهم القرآن للتاريخ. فهى تؤكد أن الله لم يتخلّ عن البشرية ويتركها لمصادرها الذاتية لكى تتعرف عليه باعتباره الله الخالق. إن الله برحمته بعث الأنبياء؛ ليوصلوا لهم رسالة الله المقدسة التى تقرر أن الدين لله وحده،

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وبغض النظر عن محاولة البشر خذلان إنسانيتهم برفضهم استقبال حقيقة الله، وتعاليه ووحدانيته، فإنهم كانوا يُبلغون ويُحذرون فى حينها عن طريق الرسول الذى بعثه الله ليعلمهم تلك الحقيقة بلغتهم وأسلوبهم، وقد ورد هذا فى سورة (إبراهيم: ٤) لقد كان المضمون واحدًا دائمًا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ ويفند هذا كل الأعذار لمحاولة إنكار الله، سبحانه وتعالى.

الهندوس والبوذيون: وافدون قدامى على الطريق

كما يؤمن الإسلام، فقد استمرت عقيدة التوحيد المتوارثة من آدم عن طريق نوح؛ حيث يقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾ [الشورى: ١٣] ويقول أيضًا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣] ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣ـ١٦٤].

نظرًا لأن القرآن يخبر قراءه عن العديد من الرسل الذين لم تذكر أسماؤهم، وأن الله قد بعث فى كل أمة رسولاً ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ [النحل: ٣٦] فإن المسلمين يؤمنون بأن الله قد أرسل لكل البشرية أنبياء، قال تعالى: ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ [مريم: ٥٨]؛ يشير قوله تعالى «ذرية آدم» إلى الأنبياء الذين بعثوا للبشرية بأكملها، وأما قوله تعالى «وممن حملنا مع نوح» فيشير إلى فئة أقل، وهم الأنبياء الذين جاءوا من نسل نوح، ثم يشير

إلى الفئة الأقل فى عبارة «ذرية إبراهيم» وهم الأنبياء من ذرية إسماعيل وإسحاق، و«ذرية إسرائيل» تعنى بالطبع هؤلاء الأنبياء الذين جاءوا من نسل يعقوب بن إسحاق والذى عرف فيما بعد بإسرائيل.

لذلك، فقد أرسل الله وبلا شك، أنبياءه إلى الهند والصين، ولكل الناس فى شتى أنحاء العالم، وعلى الرغم من أن هؤلاء الأنبياء ربما لا يكونون بالضرورة من نسل إبراهيم، إلا أنهم بالتأكيد من نسل آدم، وفى الأغلب ضمن نسل نوح. وبناءً على هذه الحجة التى جاءت فى القرآن، فإن الهندوس والبوذيين ينحدرون من تعاليم دينية دعا إليها فى الأساس أنبياء جاءوا من نسل آدم ونسل نوح.

لذلك، فإن هذا الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء فى شتى بقاع الأرض ـ وهو دين عالمى من المنظور الإسلامى ـ يتكون من خمسة مبادئ تم التأكيد عليها مراراً فى كل الوحى الإلهى:

١ـ أن وحدانية الله وتعاليه مؤكدان فى انفصال الذات الإلهية عن الوجود، وأنه ليس كمثله شىء، لا يمكن الإحاطة به من قبل مخلوقاته؛ وهذا يعنى أن ذراع الإنسان أقصر من أن تستطيع أن تحيط بالله، وأننا مهما حاولنا التحدث عن الله أو فهمه، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ أجلّ من أن يوصف. إنه المجهول الأعظم.

٢ـ أن الله الحى، رب الخلق، وأن الله الخالق هو سبب وجودنا فى هذا الوجود، وهو الذى جعل لحياتنا هدفًا، وصاغ المعايير والأخلاق التى يعيش بها كل مخلوق حياته. وهذا يعنى أن الله هو أهم ما فى حياتنا، ومنه نستطيع أن نميز بين الخير والشر.

٣ـ أن هذا شأن إلهى يمكن إدراكه بالنسبة لنا ـ نحن البشر ـ ويمكن أن يتجلى لنا من خلال واحد أو كل الوسائل الثلاث الآتية: العرفان (أى عن طريق استقراء أو استنباط وجوده فى بشائر الطبيعة، والتى تشتمل على دخائل أنفسنا وحالة الوعى)؛ أو عن طريق العلم والمعارف التى جمعها (التاريخ) من أسلافنا بما فى ذلك اكتشافها فى الأنماط الفريدة أو فى قوانين الطبيعة، أو عن طريق النبوة وهو الوحى المباشر بإرادة الله عن طريق كلمات يسهل استخدامها لتحقيق الفهم الإنسانى.

٤ـ أن البشر لديهم القدرة على تنفيذ الأوامر الإلهية؛ وذلك لأن لدينا المعرفة، ولأننا نتصرف من منطلق إرادتنا الحرة مسترشدين بمعلوماتنا المسبقة الواعية، وأيضًا لأن الله قد أخضع لنا الطبيعة؛ فعندما نمارس إرادتنا بما يتوافق مع الوصايا الإلهية نكون قد فعلنا الصواب وتجنبنا الخطأ.

٥ـ أن البشر مكلفون؛ ولذلك فإنهم يجب أن يتحملوا المسئولية التى تعنى أننا سنحاسب؛ فمن أطاع سيجازى خيرًا، ومن تحدى أو انتهك سيعاقب.

إن هذه المبادئ الخمسة هى جوهر وأساس التدين الحق كله؛ فقد أقر كل من ينتمون إلى عقيدة دينيه ثابتة فى أى مكان فى العالم بهذه المبادئ بغض النظر عما إذا كانوا يمارسونها فى حياتهم اليومية، وبذلك فقد التزموا بدين الله. إن هذه الحقائق متكاملة فى عقيدة الإسلام، وهى تصف دينًا عالميًا.

اليهود والمسيحيون: أشقاء على الطريق

يطلق القرآن على اليهود والمسيحيين «أهل الكتاب». ويؤمن المسلمون بأن الله قد أنزل إليهم عن طريق الأنبياء كلماته، أى الكتب المقدسة التى تحتوى على التعاليم الدينية لرسالته. وإذا افتقد البشر ـ لسبب ـ ما يعد طبيعيًا، وبالتالى ضروريًا لهم، فقد منحوا تلقائيًا الكتاب المقدس هدية السماء، ومعه النبوة. وبالتالى فإن اليهود والمسيحيين أيضًا أصحاب دين فطرة، دعمته الكتب السماوية وجاء به الأنبياء. وأى مسلم ينكر هذا فإنه يخالف القرآن؛ لذلك فإن المسلمين ـ من وجهة النظر الدينية ـ يقرون بأن كلاً من المسيحية واليهودية قد وهبتا دين الله مرتين، مرة من خلال الفطرة الضرورية والشاملة، ومرة أخرى من خلال نعمة الله التى تجلت فى الكتب المقدسة وأنبيائهم.

لا يشك المسلمون ولا يجادلون فى هذه المسلمات السابقة؛ ذلك لأنها جاءت باعتبارها بيانًا إلهيًا فى القرآن، لكن تم التأكيد عليها بشكل أكبر من خلال وسيلة ثالثة للتبرير، وهى وسيلة مباشرة فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ**

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

إن هذه الآيات لا تعترف فقط بتشابه اليهود والمسيحيين مع المسلمين، بل إنها تعرف الإسلام عن طريقهما؛ إن هذا التكامل بين الأديان الثلاثة يجعل المسلمين يعتبرون اليهود والمسيحيين إخوانهم فى الإيمان، وفى التسليم بإله واحد للجميع. وبالتأكيد هناك خلافات بينهم، إلا أنها لا تتعدى الخلافات العائلية البسيطة.

كما يفرق القرآن بين الصالحين والطالحين من أتباع النبى محمد ﷺ فإنه أيضًا يفرق بينهم عند كلٍّ من اليهود والمسيحيين، وذلك لتبديد أى سوء فهم عن فكرة سمو المسلمين على غير المسلمين، (وهذا ينطبق على كل الطوائف الدينية أيضًا) قال تعالى: ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١١٣ـ١١٥].

فى الواقع ربما تكون الخلافات الأسرية سيئة للغاية، ولكننا يجب أن نضع فى الاعتبار أن القرآن لم يوجه أى نقد لليهود أو المسيحيين لم يكونوا هم قد وجهوه لأنفسهم ولأعرافهم من قبل. ولا يستطيع أى مسلم أن ينكر أن هذه الأخطاء شائعة، وهى نواقص موجودة فى أية جماعة دينية، وموجودة أيضًا فى المجتمع الإسلامى.

فالقرآن ـ على سبيل المثال ـ ألقى اللوم على اليهود لتقاعسهم عن التمسك بالتوراة فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٦٨]، وكذلك لتقيدهم المفرط بالحرفية على حساب الجوهر والمغالاة فى سلطة بعض أحبارهم فى قوله تعالى: ﴿ **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ**

﴿التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

[آل عمران: ٥٠]

ولقصرهم عقيدة التوحيد عليهم فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

كما يؤكد القرآن فى التفريق بين الصالح والطالح من أمة محمد ﷺ فيما يلى:

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ٩٧ ـ ١٠١]، وإذا كان هناك منافقون فى المدينة فى عهد رسول الله ﷺ، فلماذا نظن بأن هذا الواقع قد تغير؟ ولكن القرآن قد فرق بين هؤلاء المنافقين وبين الصالحين فى الآية التالية، وهى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩]

أما فيما يتعلق بالمسيحيين، فقد عاب القرآن عليهم تأليه المسيح عيسى عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم

بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]؛ وعقيدة التثليث والمغالاة فى أمور الدين فى قوله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾** [النساء: ١٧١]؛ ويلوم القرآن المسيحيين أيضًا لعدم إظهارهم القيمة الكاملة للوحدانية، ولإحلالها أو خلطها مع رسالة أخرى. كما يؤكد القرآن أن المعرفة والوعى والتسليم بوحدانية الله هى التى تنجى، أى أن البشرية ستنجو بهذا الإيمان، وبالأعمال التى تعتمد على وجود هذا الإيمان والإخلاص فيه. ربما يقول المرء إن المسيحيين أقاموا عقيدة تعتمد على معجزة الله للخلاص التى تمثلت فى شخص المسيح وحده، وهى عقيدة لا يستطيع المرء أن يتقرب إلى الله فيها إلا من خلال المسيح.

ويختلف كلٌّ من الدين المسيحى والإسلامى عن اليهودية فى اعتقادها بأن الإنسان يجب أن ينحدر من نسل يعقوب لكى ينتمى إلى الله، وأن إتمام الأعمال المفروضة هو كل ما يطلبه منا الله. ولكن الإسلام والمسيحية أطاحا بحدود إسرائيل الإثنية. فالمسيحية أحلت مكانها فكرة إسرائيل الروحانية، وأعطت أسبقية لحب الله (أن نعبد الله بالروح والحقيقة) على جميع الأعمال المفروضة. ولكن المسيحية أكدت أن الخطيئة أفسدت الإنسانية، وأن المسيح وحده يستطيع إنقاذنا من هذه الحالة. أما الإسلام فإنه قائم على بديهية أن الإنسانية خلقت من روح إلهية، (وهى الحقيقة التى يوافق عليها كلٌّ من اليهود والمسيحيين)؛ ولذلك فهناك شىء موجود بداخلنا يشارك بدوره فى الحقيقة المطلقة ـ بدونه لا يصبح البشر آدميين ـ يجعل الخلاص ممكنًا بشرط أن تمتلك المعرفة اللازمة، وهذه المعرفة هى ما يزودنا به الوحى الإلهى (القرآن)؛ ولذلك، فعلى الرغم من احتياجنا إلى مبلغ بشرى للوحى، إلا أن هدف هذا المبلغ هو إيصال الأمور الأكثر أهمية فى الوحى الإلهى التى تشتمل على المعرفة التى تتعلق بالمحتوى الجوهرى غير القابل للتغير لعلاقة البشر بالله، الذى أصبح حقيقة واقعية من خلال القدرة التحولية للذكر **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾**، وهو الذكر المتبادل بين الله والبشر.

لكن القرآن ـ وبنفس القدر ـ أثنى على المسيحيين لتواضعهم وإيثارهم للغير، ولخوفهم من الله، وقد أعلن أنهم الأقرب للمسلمين لمشاعر الحب الدافئة التى يكنونها لجيرانهم فى قوله تعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [النساء: ٨٢]؛ حقّا، لقد رفض القرآن ادعاءهم بأن نصوص الكتاب المقدس سجلات متكاملة للرسالة التى بلغها المسيح ﷺ، بيد أن القرآن ليس وحده فى هذا، حيث أقر علماء الكتاب المقدس واللاهوت نفس الرأى. ولقد تبنى نفس رأى القرآن أو على الأقل رأيًا قريبًا منه بعض الآباء الرسوليين خاصة فى نيقية وآباء ممن كانوا معها أو ضدها، وعدد غير محدود من علماء المسيحية.

ومع ذلك، فلم يوجه القرآن إدانة تامة لأى إنسان، حيث تقف الآيات التى تشتمل على النقد جنبًا إلى جنب مع الآيات الأخرى التى تظهر وتبين الصالحين، وكلٌّ منها يمتلك نفس المصدر الإلهى، ولكى نعبر عنها بلغة دارجة، نقول إننا قد ارتكبنا جميعًا ـ نحن المسلمين واليهود والمسيحيين ـ بعض الأخطاء فى فهمنا لله وممارستنا للطقوس الدينية، إلا أنه فى الأساس فإننا جميعًا على صواب طالما أننا جميعًا نؤمن بإله واحد، ونحاول أن نحب الله قدر الاستطاعة ونبذل قصارى جهدنا لنعامل البشر بصورة إنسانية. لن يرفض الله أحدًا وفقًا لما تدعيه، ولكننا جميعًا سنحاسب على شخصياتنا وطبيعة معتقداتنا وأفعالنا.

ولتلخيص ما سبق، فإن القرآن يعلم أتباعه أن يعاملوا البشرية كلها بطريقة طيبة، خاصة اليهود والمسيحيين الذين يشاركونهم أعرافًا دينية واحدة ترجع إلى إبراهيم ونوح، ومن قبلهم آدم عليهم الصلاة والسلام. ويقول القرآن إن تراث إبراهيم ﷺ السامى للدين، يمنح الحياة لمبدأ أن الله: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ [الشورى: ١٣]، وهذا أمر لأهل الدين جميعًا، وخاصة هؤلاء الذين يعملون فى قطاع حوار الأديان ـ لأن يعبدوا الله بشكل صحيح، وألا يقوموا عن عمد بتفريق المجتمعات إلى طوائف متخاصمة بسبب الدين.

وبالأخذ فى الاعتبار مواقف المسلمين السابقة تجاه اليهود والمسيحيين، وهى المواقف التى اتضحت تاريخيّا، لا يمكن ولا ينبغى أن تعتمد المواقف الأمريكية تجاه المسلمين الذين يشكلون تقريبًا ربع الجنس البشرى على آراء قلة من الأمريكيين أو على وسائل الإعلام محدودة المعرفة بالإسلام أو غير القائمة على تعاليم الوصية الثانية. فوسيلة الإعلام الأمريكية التى تضع المسلمين دائمًا على قدم المساواة مع المعادين للسياسة الأمريكية ومع الإرهابيين، وأن لهم أسلوب حياة يخالف أعمق القيم الأمريكية، تتسبب فى ضرر كبير لأمريكا. وهو نفس الضرر الذى تتسبب فيه وسيلة إعلام إسلامية تجعل أمريكا دائمًا معادلاً للقيم التى تعارض الإسلام بصورة جوهرية.

ستظل دعوة الله فى القرآن لليهود والمسيحيين باقية بقاء الدعوة الإسلامية، وهى دعوة سليمة مناسبة وذات صلة بظروف الحياة، وضرورية فى وقتنا الحاضر كما كانت عندما نزلت منذ أربعة عشر قرنًا خلت، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا**﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولن يجدى شىء أقل من ذلك فى هذا المقام، ألا وهو أن يعترف الأمريكيون ـ وخاصة اليهود والمسيحيين منهم ـ بأن المسلمين مجتمع دينى عالمى شرعى جدير بالمشاركة فى ملة إبراهيم التى تعتبر أساس إعلان الاستقلال الأمريكى، وجعل هذا المبدأ أساسًا للسياسة الأمريكية تجاه المسلمين فى العالم.